

في التجديد

بقلم الدكتور طه حسين

ولماذا أريد التجديد الأدبي لأنه بطيء مضطرب لا نظام له ولا اطراد، على حين يأخذ التجديد في نواحي حياتنا الأخرى طرقاً واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا التواء. فالعلم يدرس في مدارسنا المدنية على النحو الأوربي الجديد في غير مراوغة ولا تلوؤ. ولسنا نعرف مدرسة مدنية تدرس فيها الطبيعة أو الطب على نحو ما كان يدرسهما أصحاب أرسططاليس وتلاميذ الفارابي وابن سينا، وإنما تدرس الطبيعة والطب وغيرهما من العلوم على أحدث نوع من أنحاء الدرس تعرفه أوروبا وأمريكا. وليس على ذلك اعتراض أو نكير، وإنما يكون الاعتراض والإنكار لو حاولت المدارس أن تعدل عن هذا النحو الجديد من الدرس إلى نحو آخر قديم ولو قليلاً. والفن الذي يتبع هذا العلم ويجاريه في الحياة العلمية مجارة الظل لشخص يسلك طريقاً جديدة أيضاً.

فكما أننا ندرس الطبيعة والميكانيكا والطب على النحو الجديد فنحن نطبقها أيضاً على النحو الجديد. أما حياتنا السياسية فمسرقة في الميل إلى التجديد، ويكفي أن تكون الصلة قد انقطعت بينها وبين ما ألف آباؤنا من الحياة السياسية، فليست هناك صلة ما بين نظامنا السياسي القائم مهما يكن وما ألف المصريون القدماء من حكم الفراعنة، أو ما ألف المصريون المسلمون من

حكم الخلفاء والسلاطين. ونستطيع أن نقول مثل هذا في حياتنا الاجتماعية، فهي ممعنة في التجديد، وحسبك أن تشريعنا المدني كله يقتبس من أوربا، لا من النظم القديمة ولا من الإسلام نفسه، وحياتنا الاقتصادية جديدة كلها. فلم يعرف القدماء هذا النحو من البيوت المالية وهذا النحو من التعاون المالي الذي نعرفه نحن ونسرف فيه أكثر مما يسرف فيه الأوربيون أنفسهم.

التجديد عندنا إذن مطرد في كل شيء، تؤيده الحكومة وتدعو إليه وتفرضه على الناس فرضاً، وتشعر القوانين في كثير من الأحيان لمعاقبة الذين ينكرونه أو يخرجون عليه.

وهذا التجديد ملائم كل الملاءمة لميولنا وأهوائنا ولطبائعنا وأمزجتنا. فنحن مطمئنون إلى ما شرع لنا من النظم التعليمية والقضائية والاقتصادية والسياسية، وإذا كنا ننكر على الحكومة شيئاً فإنما ننكر عليها إبطاءها في التجديد، وإذا كنا نتمنى شيئاً فإنما نتمنى الإسراع في هذا التجديد حتى تزول الفروق بيننا وبين الأوربيين.

ومع ذلك فهناك ناحية من نواحي حياتنا العامة والخاصة يشتد فيها إنكار التجديد والخروج عليه، ولا يكاد المجددون يشقون فيها طريقهم إلا على شيء من المشقة والعناء غير قليل؛ وهي الناحية الأدبية.

فالمجددون من الأدباء لا يزالون قلة في الشرق عامة، وفي مصر خاصة، وهذه القلة ليست آمنة ولا مطمئنة على مستقبلها الأدبي ومذاهبها في التفكير والتعبير، وإنما هي عرضة دائماً للمقاومة والمناوأة والكيد والدس، وما إلى هذا كله من ضروب الخصومة الشريفة وغير الشريفة. والذوق العام يقبلهم حيناً ويزور عنهم حيناً آخر، وازوراره عنهم أشد من انقياده لهم.

وهؤلاء المجددون أنفسهم على اقتناع كثير منهم برأيهم في التجديد مضطرون، لم يبلغ بهم الإيمان بمذهبهم الجديد إلى الحد الذي يستطيعون معه التضحية في سبيل مذهبهم أو الجهاد الصريح لنصر هذا المذهب. فمنهم من ينفر إذا اشتدت الخصومة، ومنهم من يتملق القديم فيحتال في أن يلون آراءه الجديدة بلون فيه ميل قوي أو ضعيف إلى القديم. فما علة هذا النوع من التناقض بين حياتنا الأدبية وغيرها من فروع الحياة المختلفة التي نحياها؟ وما السبيل إلى إلغاء هذا التناقض والملاءمة بين حياتنا العاقلة الشاعرة وحياتنا العاملة؟

[ص. 52]

أما جواب السؤال الأول فيسير فيما يظهر. ذلك أن تطور العقل والشعور بطيء بطبعه، أشد بطئاً من تطور الحياة العملية. فقد يكون من اليسير أن ندع الزي الشرقي إلى الزي الغربي، وأن نجلس إلى الموائد لنأكل ونشرب على النحو الذي يأكل عليه

الأوربيون ويشربون دون أن يكون لهذا كله مصدر إلا الرغبة
اليسيرة في التقليد والميل اليسير إلى ما هو أدنى إلى الراحة
وأقرب إلى المتعة. فحياتنا المادية تتطور وتسرف في التطور دون
أن يؤثر ذلك في حياتنا العقلية والشعورية.

وكثيرون جداً هؤلاء الذين ذهبوا إلى أوربا قد درسوا فيها وأقاموا
فيها أعواماً طوَّالاً، وظهر عليهم التأثير بدرسهم الأوربي وإقامتهم
في أوربا حتى وصفهم الناس بالفرنج، واقتنعوا هم أيضاً بأنهم
متفرنجون، ولكنهم على ذلك يفكرون كما يفكر الشرقي الخالص،
ويشعرون كما يشعر الشرقي الخالص، وهم شرقيون بأشد
معاني هذه الكلمة دقة إذا خلوا إلى أنفسهم أو أرسلوا طبائعهم
على سجاياها.

وكثيراً ما يكون لهذا أثر بعيد في حياة الشرقيين والأوربيين
جميعاً. فهؤلاء الشرقيون المتفرنجون يخدعون أنفسهم
ويخدعون الناس ويمضون في هذه الخديعة حتى يصلوا إلى
الأوربيين، فيحسبهم الأوربيون أمثالهم في التفكير والشعور،
فيقبلونهم أصدقاء ويظنون هم أنفسهم أنهم أوربيون في التفكير
والشعور فيقترنون بالأوربيات.

حتى إذا عادوا إلى مصر وصهرتهم شمسها الحارة زال عنهم هذا الطلاء فظهرت شخصياتهم الشرقية واضحة جلية، فأنكرهم أزواجهم وأنكرتهم أزواجهم أيضاً واتصلت لهم ولأزواجهم حياة مرة منغصة. وهؤلاء الشرقيون المتفرنجون يتحدثون إليك في أوربا أو حين يعودون منها، فإذا هم ينكرون في مصر كل قديم، وإذا هم حراس على التجديد حتى إنك لتخافهم على النظام وتحسبهم دعاة ثورة وفتنة، ثم لا يمضي عليهم في مصر زمن قليل حتى يصبحوا، أو قل حتى يعودوا، أنصاراً للقديم كما كانوا قبل أن يذهبوا إلى أوربا.

لا مصدر لهذا كله إلا ما قلناه من أن التطور العقلي والشعوري بطيء بطبعه. وإذا كان تطور التفكير والشعور بطيئاً فلا جرم تبعه في البطء تطور التعبير، أي تطور الحياة الأدبية. فلأجل أن تجديد الإنشاء الفني شعراً أو نثراً يجب أن يكون هذا الإنشاء صادقاً، أي صورة قوية صحيحة لما يضطرب في نفسك من خاطر وما تجد من عاطفة أو هوى. وإذا كنت شرقياً خالصاً فستحضر لك الخواطر الشرقية، وستجد العواطف الشرقية، وستعبر عنها كما يعبر الشرقيون، أي ستكون قديماً في تفكيرك وشعورك وتعبيرك.

أما الجواب عن السؤال الثاني فما نظنه أشد عسراً من الجواب عن السؤال الأول؛ ذلك أن من الواضح أن أحسن دواء لما أصابنا هو استئصال العلة التي تدعو إلى المرض. فإذا كان التجديد في

الأدب بطيئاً لأن التطور العقلي والشعوري بطيء بطبعه، فخير طب لهذا إنما هو إعانة التطور العقلي والشعوري على أن يتحقق ويسرع إلى حد ما. وبمقدار ما نعين هذا التطور على الإسراع يكون حظ أدبنا العربي من التجديد.

ومن الغريب أنك تلاحظ بين حياتنا العلمية والأدبية تناقضاً في حظهما من التجديد، مصدره التناقض فيما بذل من الجهود لتحقيق التطور العلمي والأدبي. فقد بذلت جهود عنيفة كثيرة متصلة لتحقيق التطور العلمي منذ أول القرن الماضي. ففرض العلم العصري على الناس فرضاً لأن حاجتهم في حياتهم العملية كانت تقتضي ذلك، وبلغنا بفضل هذه الجهود إلى حياة علمية قد تكون قوية منتجة وقد تكون ضعيفة قليلة الإنتاج، ولكنها جديدة على كل حال.

أما الجهود التي بذلت لتحقيق التطور الأدبي فقليلة ضئيلة متقطعة، لأن التطور الأدبي لم تدع إليه الحاجة العاجلة. فبينما كان التقدم العلمي قد مضى إلى أمد بعيد في مصر، كانت الحكومة لم تفكر بعد في إنشاء مدرسة دار العلوم. فلما أنشأتها مضت في إنشائها على استحياء، وجددت في نظامها بقدر، ثم وقفت عند هذا الحد من الجهد لتحقيق التطور الأدبي. وطبيعي أن تكون ثمرة هذا الجهد القليل ضئيلة.

ثم انتظرت الحكومة نصف قرن وأضافت إلى جهدها الأول جهداً آخر هو إنشاء كلية الآداب في الجامعة، ولكن هذا الجهد لم يؤت ثمره بعد لأنه لا يزال حديث العهد. جهد الحكومة لتحقيق التطور الأدبي ضئيل بالقياس إلى جهدها لتحقيق التطور العلمي؛ ومع ذلك فقد تطور الأدب العربي نحو التجديد في مصر تطوراً لا بأس به مصدره جهود فردية بذلت لنشر الكتب القديمة، وترجمة الكتب الحديثة، وقرئت هذه الكتب وتلك فكانت هذه النهضة التي نشهدها الآن.

ولو قد عني الأفراد بالعلم عنايتهم بالأدب لكانت حياتنا العلمية أرقى جداً مما هي الآن. ولو قد عنت الحكومة بالأدب عنايتها بالعلم لكانت حياتنا الأدبية أرقى جداً مما هي الآن. على أن هذا كله من التاريخ، وربما كان الخير في أن تفكر الحكومة في بذل شيء من الجهد الجدي لتحقيق التطور الأدبي، حتى لا يوجد هذا التناقض بين حياتنا الأدبية وفروع حياتنا الأخرى، وحتى تنشط الألسنة والعقول والقلوب كما تنشط الأيدي، وحتى تصبح اللغة العربية لغة للمصريين حقاً تلائم حاجاتهم ملائمة صحيحة.

وسبيل هذا الجهد عندي أن تدرس الآداب الحديثة كما تدرس العلوم الحديثة، وأن تفرض هذه الآداب على شباب المتعلمين كما فرضت عليهم العلوم. ولا أكاد أفهم معنى لجعل العلم الحديث فرضاً لنيل الإجازات بدونه، وإهمال الأدب الحديث كأنه لم يوجد.

سيقولون إن العلم الحديث سبيل إلى الحياة المادية التي لا سبيل إلى الاستغناء عنها. فنقول: والأدب الحديث سبيل إلى الحياة الروحية التي لا سبيل إلى الاستغناء عنها، إلا أن تتحول مثلنا العليا فنقنع بأن نكون أجسامًا لا أرواح فيها. على أن قليلًا من التفكير كفيل بأن يثبت أن الحياة المادية الخالصة نفسها لم توجد ولن تقوم في عصر من العصور إلا لأن الأدب وجد قلبًا فأحيا العقل وأحيا الشعور ودفع الناس إلى البحث والاستقصاء ثم إلى الإنتاج والاختراع.

ومن يدري؟ لعل العلة الصحيحة في أن كثرة علمائنا مقلدون لا ينتجون ولا يبتكرون إنما هي قلة بضاعتهم من الأدب المنتج؟

المجلة الجديدة ١ - ١١ - ١٩٢٩